شارلوت برونتي والمربّية اليتيمة جين آير والسينما

سلوى جراح

لا شك في أن اسم شارلوت برونتي (١٨١٦-١٨٥٥) ارتبط بأهم أعمالها، "جين آير"، التي يعتبرها الكثير من النقاد روايتها الوحيدة، لأن كل ما كتبت لا يرقى إلى مستوى هذه الرواية، بل إن بعض ما كتبت واجه الكثير من الصعوبات مع ناشري العصر الفكتوري وتم رفضه. رواية "جين آير" هي في الواقع التي صنعت اسم شارلوت برونتي كروائية، وحققت النجاح منذ نشرها عام ١٨٤٧ لتصبح على مر السنين من عيون الأدب الإنكليزي. وحتى من لم يقرأ رواية "جين آير" لا بد من أن يكون قد شاهد أحداثها على الشاشة الفضية، فقد أنتجت الرواية سينمائياً اثنتين وأربعين مرة وكان أول تلك الأفلام فيلم إيطالي صامت عام ١٩١٠ ثم توالت الأفلام في هوليوود واسبانيا واليونان وانكلترا وحتى السينما المصرية لم تغفلها فقدمت عام ١٩٦٢ فيلماً من بطولة ماجدة ويحيى شاهين. أما آخر تلك الأفلام وقد لا يكون أخيرها فهو الفيلم الذي يعرض في لندن حالياً ويحمل اسم الرواية، من بطولة ميا فاشيكوفسكا بدور جين آير، والتي أثارت اهتمام الجمهور في العام الماضي في فيلم "أليس في بلاد العجائب" ثم فيلم "الأولاد بخير"، وقام بدور المستر روشيستر الرجل الغني الوسيم الغامض، مايكل فاسيندر الذي أحبه عشاق السينما في فيلم "سينتوريون" التي تعني قائد المئة جندي عند الرومان. مخرج الفيلم، كاي فوكوناجا، شاب يقدم فيلمه الثاني لجمهور السينما، ورغم ترحيب النقاد بنظرته المعاصرة لرواية من القرن التاسع عشر، إلا أن الكثيرين منهم تساءلوا، لم يعاد تقديم رواية شارلوت برونتي في السينما للمرة الثالثة والأربعين؟ ولم يختار مخرج شاب لفيلمه الثاني في قائمة أعماله السينمائية هذه الرواية التي مرت قبله على عشرات المخرجين؟

لعل الجواب يكمن في طبيعة رواية شارلوت برونتي، فهي تتحدث عن فتاة لاقت الأمرّين من قسوة الحياة، خاصة في الملجأ أو المدرسة الداخلية للفتيات، التي كانت في العصر الفكتوري سجناً للأطفال يجبرهم على اعتياد الحرمان. وهي تجربة عاشتها شارلوت برونتي بكل تفاصيلها القاسية. فبعد وفاة أمها وهي لم تزل في الخامسة من عمرها، جاءت خالتها للعيش معهم لتعتني بهم، ثم بدأت تشكو من حجم مسؤولياتها فاضطر والدها القس باتريك برونتي، لإدخالها هي وثلاثة من شقيقاتها، ماريا وإليزابيث وإميلي، التي كتبت فيما بعد رواية شهيرة أخرى هي "مرتفعات ويذرينغ"، إلى دار للأيتام مخصصة لبنات رجال الدين، بعد ثلاث سنوات من موت أمهم. في دار الأيتام تلك التي تصفها شارلوت برونتي بكل دقة في روايتها "جين آير"، بل إن شخصية جين آير في مجملها، مستوحاة من تجربة شارلوت برونتي الشخصية. في ملجأ الأيتام لاقت الشقيقات العذاب من القسوة والحرمان على مدى أكثر من عام كامل، بل كان من نصيب شارلوت أن ترقب إحدى صديقاتها الصغيرات وهي تموت من الجوع والبرد في ليلة مظلمة. كان لحياة الملجأ القاسية تأثير سيئ على صحة شارلوت، فبقيت طوال حياتها القصيرة تعاني من الأمراض، كما عجلت في وفاة اثنتين من شقيقاتها إليزابيث وماريا وهما لم تتجاوزا العاشرة من العمر بعد إصابتهما بالسل. وحين أخرجهما أبوها من دار الأيتام هي وشقيقتها إميلي، عاشت الشقيقات الثلاث إميلي وآن وشارلوت مع شقيقهما الوحيد برانويل، في بيت في مقاطعة يوركشاير مخصص لراعي الكنيسة هناك، يشرف على مقبرة وتصفر فيه الريح. لكنه رغم ذلك كان المكان الذي فجر المواهب الأدبية لدى الشقيقات الثلاث والأخ الوحيد.

كانت البداية مع كتابة يوميات عن مملكة من صنع الخيال وعن الشخصيات التي تحيا فيها. كانت شارلوت وشقيقها برانويل يكتبان نصوصاً مستوحاة من أشعار لورد بايرون (١٧٨٨-١٨٢٤) والتي أسمياها "أنغريا" فيما كانت إيميلي وآن تكتبان عن مملكة مشابهة اسمها "غوندال". وما زالت بعض تفاصيل ما كتبتاه موجودة في بقايا مخطوطات. وقد أمدتهما تلك الكتابات بما يشغل طفولتهما وصباهما المبكر. ولكن مع حلول عام ١٨٤٩ توفي برانويل وإميلي وآن وظلت شارلوت تعيش وحدها مع والدها ومع مبدعتها شارلوت برونتي.

الشهرة والنجاح اللذين دخلا حياتها مع نشر روايتها "جين آير" رغم أنها نشرتها أصلا تحت اسم مستعار "كيورر بيل" لكنها بعد كل ما أثير من تساؤلات حول حقيقة شخصية الكاتب، كشفت عن اسمها الحقيقي وتوطدت علاقتها مع العديد من كبار كتاب عصرها مثل الروائي الفكتوري الساخر وليام ثاكري (١٨١١-١٨٦٣) والناقد والمؤرخ جي أتش لويس (١٨١٧-١٨٧٦) والروائية والقاصة إليزابيث كاسكيل (١٨١٠-١٨٦٥) والباحثة الاجتماعية هارييت مارتينيو (١٨٠٢-١٨٧٦). واعتبرت روايتها فاتحة لعصر جديد للأدب النسائي فبطلتها جين آير امرأة تعرف ما تريد وتسعى للحصول عليه وتفوز بحب الرجل الذي غير معالم حياتها. بل يعتقد الكثيرون أن شارلوت تزوجت رجلاً يشبه إلى حد كبير المستر روشستر لكن الحياة لم تمهلها وماتت هي وجنينها وهي في التاسعة والثلاثين من عمرها.

السينما أحبت هذه الرواية وقدمتها في أعمال كبيرة لعل أهمها الفيلم الذي عرض عام ١٩٤٤ من بطولة نجم هوليود الشهير أورسون ويلز والحسناء جين فونتين وأخرجه روبرت ستيفنسون وشارك في كتابة النص الكاتب الشهير الدوس هكسلي وآثار مثل العديد من أفلام ويلز ضجة فنية. ولا ننسى الفيلم الذي أخرجه الايطالي فرانكو زفاريللي عام ١٩٦٩ وقام بأدوار البطولة فيه شارلوت غينسبرا ووليام هيرت. كما قدمت هيئة الإذاعة البريطانية عام ١٩٨٣ مسلسلاً ناجحاً ضمن أهم الأعمال الأدبية التي تندرج في مناهج الدراسة قام ببطولته الممثل البريطاني المعروف تيموثي دالتون أمام زيلا كلارك. كما قدم التلفزيون البريطاني مسلسلاً تلفزيونياً ثانياً في ٢٠٠٦ من بطولة رووث ويلسون وتوبي ستيفنز وسجل نسبة مشاهدة عالية. واليوم يلاقي الفيلم الجديد النجاح ويظل السؤال قائماً ما هو سر هذا السحر الذي يكتنف حكاية جين آير رغم كل بؤس وعذاب

وجهة نظر

ما الذي تبقّى من ثقافة الأطفال؟

خليل الربيعي

يعد العراق من أكثر الدول في المنطقة التي ركزت مبكراً على أدب الأطفال سرداً وشعراً وصحافة ونقداً ودراسة. فقد اهتم بالطفل من مرحلة الروضة حتى مرحلة الفتوة والمراهقة، فرسمت مجموعة من البرامج والمخططات التنموية للنهوض بالطفل العراقي، واهتمت بجوانبه السيكولوجية والاجتماعية والتربوية والأدبية والعلمية.

ومن المعلوم إن أدب الطفل في العراق ظهر في أوائل عشرينيات القرن الماضي حيث صدرت مجلات مثل (مجلة التلميذ) وغيرها بالإضافة إلى محاولات وكتابات كثيرة مخصصة للأطفال لكنه لم يظهر بشكل حقيقي وفعال إلا في أواخر الستينيات من القرن العشرين بصدور مجلة "مجلتي". وبعد ذلك، اتبعت هذه الصحيفة بجريدة "المزمار" التي كان لها صيت واسع داخل البلاد وخارجه. ومن هذه الفترة، انطلق أدب الأطفال في تطوره مداً وجزراً حسب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وعليه، فقد سار أدب الأطفال في العراق عبر مجموعة من المسارات الفنية والجمالية: كمرحلة الترجمة، ومرحلة التأليف، ومرحلة التجريب، ومرحلة الإبداع، ومرحلة التأصيل. وبعد التغيير السياسي الذي شهده العراق بعد سقوط النظام المباد..

شهد أدب الأطفال كما هو الحال في مرافق الحياة الأخرى تراجعاً ملحوظاً في إصدارات ثقافة الأطفال من حيث الكمية وليس النوعية لوجود أدباء ورسامين متخصصين في أدب الطفل جل اهتماماتهم هو النهوض بواقع الطفل العراقي.. وهم يمارسون هذا التخصص منذ عقود...

ولكن المشكلة تكمن في عملية انسيابية المطبوع من خلال الدار الرائدة في مجال ثقافة الطفل إلا وهي دار ثقافة الأطفال التابعة إلى وزارة الثقافة.. هذه الدار التي تناضل وتجاهد من اجل النهوض بمستوى الثقافة الإبداعية للطفل في العراق.. ولكن..

فكأن وزارة الثقافة تتعمد في إحباط العمل الثقافي والإبداعي لهذه الثلة الخيرة من المثقفين ومن المبدعين في مجال ثقافة الأطفال لاسيما ان دار ثقافة الأطفال هي من الدور العريقة والرائدة في مجال الإصدارات الخاصة بثقافة الطفل في الوطن العربي والشرق الأوسط.. فمعاناة هذه الدار تكمن من خلال طموحات مكبلة في أكبال الموازنة وعدم التخصيص المالي من قبل وزارة المالية،علماً بأن الدار تتعامل حسب ضوابط وقوانين النظام المباد كأجور للتعضيد ومكافآت الكتّاب والرسامين مما أدى إلى عزوف الكثير من الأدباء والمبدعين من التعامل مع الدار.. لاسيما أنها لا تتمكن من طبع عشرة منشورات خلال السنة الواحدة وهي التي كانت مطبوعاتها تصل إلى (١٠٠) مطبوع سنوياً في ثمانينيات القرن الماضي.. وكل ذلك بسبب عدم وجود تخصيص مالي للمطبوع وعدم وجود أجور مجزية للكاتب والرسام.. وعدم وجود دار للتوزيع لإيصال المطبوع إلى اكبر عدد ممكن من القراء.. وعلى الرغم من أن ثقافة الطفل هي من أهم الثقافات في العالم المتحضر.. فلا نعلم ما هي الرؤية من وراء هذا التضييق الخانق لثقافة الطفل.. وهل يمكن أن تترك ثقافة الطفل من دون رعاية والى متى؟

منضدة واحدة في الشارع وكرسيّ

لم تعرف مدينة النجف من قبل نشاطا كالذي بدأه فارس حرّام منذ أكثر من عام بصحبة مجموعة من أصدقائه الكتّاب. الشاعر العراقي اختار أحد أرصفة مدينة النجف لإحياء قراءات أدبية وفكرية أسبوعية والتفاعل مع الجمهور وجهاً لوجه عبر مكبرات الصوت.

أراد حرّام من هذه "المغامرة الصغيرة"، التذكير بأن هناك صوتا مغيّبا في عراق اليوم هو "صوت المثقفين"، وأن السياسات الحكومية تضع في حسبانها كل شيء سوى الثقافة!

فارس حرّام / النجف

-١-

وأنا أركز في وجه صديقي جيداً، نسيت إننا الآن في مساء صيفيّ عام ٢٠١٠، نحمل معاً منضدة بقياس مترين، ونحاول إيجاد مكان مناسب لها، في الشارع الذي سيكتظ بعد قليل بالمارّة وسط مدينة النجف.

نسيت هذا كلّه وأنا أتطلّع في وجه صديقي الشاعر مهدي شعلان، وأحاول التقاط صور سريعة لتجاعيد وجهه. بدا الرجل ذو الخمسين عاماً متحمساً أكثر من ذي قبل وهو يعاود نشاطه الثقافي بعد انقطاع دام أكثر من خمسة عشر عاماً، ترك فيها كتابة الشعر، لأنه "لا يُجدي" بحسب تعبيره، منشغلاً بإعالة أسرته بالعمل في دكان صغير يبيع الكتب.

نسيت وأنا أفكر بتحولات حياة شعلان، وبكمية الزمن الضخمة التي خرجت عن سيطرته طوال محاولاته الجاهدة ليكون شاعراً يقرأه الجمهور في بلاده من جهة ومعيلاً "ناجحاً" لأسرته من جهة أخرى.. نسيت، وأنا أفكر بهذا كله، أن عليّ التركيز معه اليوم في وضع منضدتنا في مكانها المناسب أمام مئة كرسيّ مصفوفة بانتظام وسط المارة، بجوار خيمة تباع فيها الكتب ضمن فعاليات اختيار النجف عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠١٢.

كانت الفكرة إطلاق حملة للمثقفين العراقيين في الشارع، للنقاش العلني في أسباب تراجع القراءة في مجتمعنا، وانحسار الجمهور الثقافي. وكان هذا جزءاً من طموحاتي الشخصية بوصفي واحداً أيضاً من الشعراء "الخاسرين"، لا بالمعنى الفني طبعاً، وإنما بالمعنى الثقافي، أقصد خسارة الجمهور العام والتأثير المباشر عبر الشعر في مجموعة من الناس.

هكذا رأى العديد من أصدقائي إن الندوة التي أود إقامتها في الشارع، بجوار خيمة صديقي شعلان.. لا تعدو كونها "مغامرة" بالإشارة إلى أوضاع العراق اليوم.

-٢-

ظلّ العراق، قبل سقوط نظام صدام عام ٢٠٠٣ وبعده، خالياً من أيّ برنامج لأيّ مؤسسة، حكومية وغير حكومية، يتضمن القيام بتنمية ثقافية منظمة وستراتيجية تعيد علاقة الفرد العراقي بالكتاب. وقد أسهمت التقارير الدولية والمحلية، وأرقامها المفزعة حول تردّي القراءة في مجتمعنا بإشاعة حالة إحباط مستمر لدى شعراء العراق، من أنهم سيموتون قبل أن يروا جمهوراً من خارج الوسط الثقافي يقرأ قصائدهم أو يحتفي بها.

ولا أزال أعاني من الأرق الذي يسببه لي بين الفترة والأخرى واحد من هذه الأرقام المفزعة: أن معدل قراءة الفرد في أمريكا يبلغ أحد عشر كتاباً في السنة، ويبلغ في انجلترا سبعة كتب، أما في العالم العربي فرُبع صفحة لا غير. وليس بعيداً عن أرقام هذه التقارير أن أهم شعراء العرب اليوم وأكثرهم شهرة لا يطبع الواحد منهم أكثر من خمسة آلاف نسخة للكتاب الواحد.

ربما تكون أزمة الشعر عالمية، في ضوء تزاحم الفنون وعالم الرياضة على استقطاب الناس، إلا أنها -جوهرياً- ليست نابعة عن أزمة عامة في المطالعة اليومية كما هو الحال في العراق والدول ذات الأوضاع المشابهة. إن أبناء وادي الرافدين - على اختلاف مستوياتهم التعليمية - لا يزالون يعشقون الشعر بصورة تبعث على الدهشة، لكن الشعر الذي يعشقه الغالبية العظمى منهم لا يتعدّى ذلك النوع الشفاهي الذي ينطق به شعراء اللهجة العامية، منتشراً في الاحتفالات الشعبية والتسجيلات الصوتية والأغاني البليدة. أما شعر اللغة الفصحى، لغة الكتابة والتعليم في العراق، فإنه بعيد عن اهتمام الجمهور. حتى المكتبات المنزلية، هي اليوم نادرة جداً، وبصراحة لن يخجلني القول أنني منذ مطلع شبابي حتى الآن، لم يصدف أن دخلت إلى منزل أحد جيراني أو أقاربي، أو معارفي من خارج الوسط الثقافي، سواءً في النجف أو بغداد، فوجدت لديه مكتبة منزلية ذات كتب متنوعة، باستثناء تلك البيوت الدينية، أو التي لدى أفرادها نزوع للثقافة الدينية، وهي مكتبات -أولا وأخيرا- ليس فيها ثقافة عامة بالمعنى الحقيقي.

-٣-

لقد كان من أسباب تدمير الجمهور الثقافي في العراق، ومنه جمهور الشعر، أن الطبقة الوسطى التي تضمن نشر المعرفة وقيم الجمال في المجتمع، قد جرى تدميرها بصورة منهجية أيام حكم نظام صدام. مثال على ذلك: ذهاب عشرات الآلاف من الموظفين العاديين والأطباء والمهندسين والمحامين وأساتذة المدارس والجامعات إلى الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨)؛ وعاد غالبية من نجا منهم من الموت أو الأسْر يحملون صوراً مشوشة عن الحياة.

مثال آخر: آلاف الشهادات الجامعية التي تم منحها دون استحقاق، في ظل انهيار التعليم في العراق وقت الحصار العالمي عليه (١٩٩٠-٢٠٠٣)، وكان طبيعياً أن يتحول "الأساتذة الجدد" إلى جزء جديد من المشكلة، ذلك أنهم نقلوا للشبان ابتعادهم هم عن التثقيف الذاتي وحب القراءة.

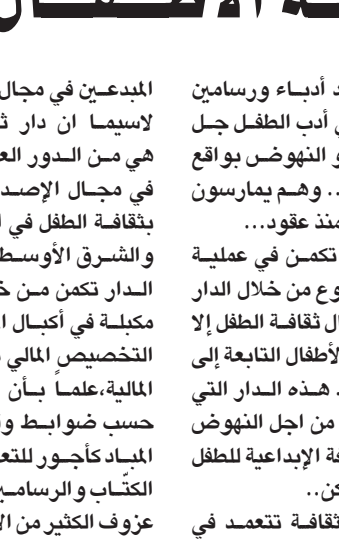
فارس حرّام

أكثر الأمثلة مأساوية.. شعراء صدام

كان نظام صدام يقدم للجمهور شعراءه الخاصين به، وباستبداده، في دعايات إعلامية واسعة، وكانوا في الغالب شعراء من الدرجة الثالثة والرابعة، اكتسبوا شهرة لاعبي كرة القدم والمغنين، وأصبحوا بالفعل شخصيات عامة، بسبب ظهورهم اليومي تقريباً في الصحف وشاشات التلفاز. ينشرون أو يقرأون قصائدهم التي يظنها الجمهور العام - بسبب التركيز الإعلامي- أنها "الشعر الحقيقي". كان بعضهم يلبس الزيّ العسكريّ، وتظهر من خلفه صور الحرب الملونة بلوني التراب والدم.

فكانت صورة الشاعر عبر هذه التراجيديا المعكوسة مقرونة بالبهلوانيّ، واكتسب الناس حينذاك عادة النظر إلى الشعراء بوصفهم "حرّاساً" للنظام، ليس أقل. في حين توارى عن الأنظار تماماً ذلك الموقع الحيّ للشعراء الأحرار في مجتمعاتهم حين يكونون مشهورين، أن يكونوا - باختصار - كثيرا من الروح مقابل الكثير من المادة التي تحيط عالمنا المعدنيّ الكبير. وكان من أكثر الأمور صعوبة في أيام صدام أن يستطيع الشعراء الحقيقيون (وكانوا في الغالب مغمورين ولا يعرفهم أحد) أن ينشر أحدهم قصيدة يمكن أن تخلّد مشاعر الوجود الأساسية لجيل كامل من الناس، أو أن تلبي فعلياً التعطش الروحي للمجتمع.

-٤-

وسط هذه الوقائع والأفكار الموجزة، والمذكورة هنا بوصفها نماذج لأخرى أكبر، وأكثر تعقيداً... أجد نفسي في محل جواب لسؤال: كيف يسهم الشعراء العراقيون اليوم في إعادة إعمار بلادهم؟

وليس غريباً على شاعر مثلي لا يعرف شعره الجمهور العام، أن يفكر في إن الإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن تكون عبر الشعر نفسه. إذ لن يكون بمقدوري أن أسهم بحلّ مشكلات بلدي بنشر نوع خاص من الشعر، أو كتابة قصائد على الجدران ومنحدرات الطرق، حتى لو كان موجهاً إلى الجمهور العام، فهذا الأمر الذي سيسعدني كثيراً القيام به لن يكتب له النجاح في ضوء انحدار قيم الجمال وعادات المطالعة في بلادي. هذه الحقيقة التي تخلخل وجودي كلّ يوم، هي بالضبط ما يدفعني ويدفع الكثير من أصدقائي الشعراء إلى أن نفكر بالإسهام بإعمار بلادنا عبر طرق أخرى، أكثر سرعة وبداهة وانتشاراً من الشعر، ككتابة العمود الصحفي، والورقة البحثية، والمقال، فضلاً عن الظهور في البرامج التلفزيونية والإذاعية للحديث في شؤون البلاد وتحليل الوقائع، والمشاركة في الندوات التي تقيمها مؤسسات متنوعة، والحديث المستمر إلى أقرب الناس. كانت غايتنا - نحن الشعراء- في هذا النشاط "اللاشعريّ" تكاد تكون مشتركة بيننا جميعاً: إعادة إعمار الروح في مجتمعنا.

يؤسفني ألا يستطيع الشعر الآن أن يقوم بهذه المهمة بصورة مباشرة، بسبب غياب الجمهور الثقافي. ولهذا كانت مسؤوليتي تجاه مستقبل بلادي تحتم عليّ التفكير بمشكلة إعادة تشكيل الجمهور الثقافي نفسه، وسط غياب أي مبادرة حكوميّة أو غير حكومية لذلك. وقد ساعدني انتخابي رئيساً لاتحاد الأدباء والكتاب في النجف في تموز عام ٢٠١٠ في أن أقوم بعد شهر واحد بتنفيذ واحد من أكثر أفكاري جرأة: أن أضع منضدة بطول مترين في شارع بالنجف مزدحم بالمارة، وفي جوار معرض صغير للكتب لصديقي الشاعر "السابق" مهدي شعلان، لكي أتحدث في مكبرات الصوت عن الوسائل التي يمكن أن يستعيد فيها الفرد العراقيّ المتعلم علاقته بالمطالعة.

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه المبادرة تنمو وتتكرر بنجاح، حتى آخر محاضرة أقمناها في الشارع يوم أمس (٢٠١١/٩/٢١) للبروفيسور عبد علي الخفاف عميد كلية الآداب في جامعة الكوفة.. وعلى الرغم من الاهتمام الإعلامي على مستوى العراق كلّه بابتكار هذه الفكرة، ونجاحها في استقطاب رموز ثقافية مهمة لإلقاء محاضرات في الشارع دون أي فاصل عن المارة.. إلا إنني لا أستطيع أن أقول إنها مبادرة "حاسمة" في إعادة تشكيل الجمهور الثقافيّ. ذلك إنها تجربة ذات طابع "رمزي" بالدرجة الأساس. أردنا فيها أن نعيد التذكير بان هنالك صوتاً غائباً (أو مغيباً) في أحداث العراق اليوم وترتيبات خطط المستقبل: هو صوت المثقفين.

أما المبادرات الحاسمة لبناء مجتمع معرفي متميز يستطيع فيه الشعراء أن يعيشوا بوصفهم "شعراء"، فإنها مبادرات لابد من أن تكون على مستوى الدولة، وأن تكون ستراتيجية وجذرية، ولابد من أن يكون للمؤسسات الثقافية وجود حقيقي في صياغة رؤية الحكومة نفسها في عمليات التنشئة الاجتماعية، وأن تكون الأرض الأولى لهذا التغيير قطاعات التربية والتعليم، وأن يتم فيها صياغة مفهوم جديد للعراق نفسه، ذلك البلد الذي لم تقم فيه دولة بالمعنى الحقيقي منذ زوال الاحتلال العثماني مطلع القرن العشرين، حتى الآن.

عن "نقاش ويكلي"

قناديل

لطفية الدليمي

تجارب ثقافية لشعوب فقيرة

مكتبات متنقّلة على ظهور الفيلة والجمال والحمير!

لاتستغني الشعوب الحية عن الثقافة مهما بلغت درجة فقرها وعوزها في هذا العصر الاستهلاكي الذي يعيش ثلاثة أرباع سكانه في حالة فقر و عوز، بينما يتمتع اقل من ربع السكان بالرفاه ووسائل الاتصال الحديثة والكتب والتلفزة وتتوفر لأطفالهم مدارس حديثة ومكتبات وحواسيب وآلات موسيقية ونواد رياضية –وتعتبر المكتبات وقراءة الكتب في بلدان فقيرة ومبتلاة بالعنف والاضطرابات - نوعا من رفاه يتعذر الحصول عليه – وهذا مايحصل غالبا في أريافنا الفقيرة المهملة وقرانا البائسة، لكن الشعوب الحية تحظى- بأشخاص نبلاء من بين الملايين يكرسون حياتهم لخدمة الثقافة والإنسانية ومثل هؤلاء الإبطال المجهولين لم يقفوا عاجزين أمام قلة الإمكانات المادية والوسائل التعليمية المألوفة - فابتكروا مكتبات متنقلة تعتمد على استخدام الحيوانات الأليفة المتوفرة في بلدانهم الفقيرة.

المدرس الكولومبي لويس سوريانو خطرت له فكرة تقديم خدمة المكتبة المتنقلة لأطفال القرى النائية في كولومبيا البلد الفقير الذي تنخر مفاصله تجارة المخدرات والعنف فكان أن اشترى حمارا من إحدى القرى وجمع عشرات الكتب التعليمية المصورة وحملها على حماره مع منضدة مطوية وشرع يجوب الأرياف لأربع ساعات يوميا فيتجمع حوله الصغار وينزل حمولته الثمينة ليعرضها أمامهم ويعيرهم كتبا يقرأونها ليعود إليهم في الأسبوع التالي بكتب جديدة ويسترجع ماتمت قراءته ولايكتفي بهذا بل يجلس وسط الصغار ويقرأ لهم الكتب بطريقة مشوقة ويساعدهم في واجباتهم البيتية جلوسا تحت الأشجار الوارفة أو على ضفة نهر.وقد سجل له احد المتحمسين للتجربة شريط فيديو وضعه على الانترنيت فتبرع له الكثيرون بالأموال والكتب وأقام مكتبة مزودة بآلاف الكتب في إحدى المدن لكنه ظل يواصل جولاته في الأرياف ليثقف بني وطنه متطوعا غير مدفوع بربح أو تجارة.

يقول سوريانو) يتعلم الأطفال ونووهم أشياء كثيرة خلال حواراتي معهم فنحارب بهذه الطريقة جهل المزارعين ويتعرفون على حقوقهم والتزاماتهم وصحتهم وبالقراءة نجنب الأطفال الانخراط في العنف وعصابات المخدرات، فيتعرفون على مدن وثقافات وآفاق لم يسمعوا بها)، وعندما يصل سوريانو إلى إحدى القرى يبتهج الأطفال وكأنهم في عيد يركضون وراء سوريانو معبرين عن فرحهم بالغناء وبنجاح التجربة اشتهرت مكتبة الحمار المتنقلة فأسهم سوريانو بمفرده في نشر التنوير والعلم بين الأجيال الجديدة في الأصقاع النائية المهملة من قبل الدولة.

وفي بلد فقير آخر مثل البيرو يستخدم مروجو الثقافة المتطوعون الدراجات النارية التي تجوب القرى والجبال لإعارة الكتب أو إهدائها من قبل المتبرعين، بينما يعمد نشطاء الخدمات الثقافية في(كينيا) الإفريقية إلى استخدام الجمال لحمل الكتب وإعارتها في التجمعات السكانية وسط الصحارى والمناطق الاستوائية في الغابات، واستخدمت (تايلاند) الفيلة على نطاق واسع كمكتبات متنقلة توزع العلم والثقافة بين الأطفال المحرومين في المناطق التي لاتصلها الخدمات الثقافية وخدمات الانترنيت، وشاعت مكتبات الحمار في بلدان لاتينية وإفريقية، ففي(أثيوبيا) قام اتو يوهانس بتصميم عربة مكتبة يجرها الحمار ونشر عنوان طوارئ ليتصل به من يحتاج إلى الكتب وعندما يصل إلى قرية يتنافس الصغار والكبار لاقتناء الكتب أو استعارتها.

أما في العراق البلد الغني بموارده ونفطه وتاريخه الثقافي وتصريحات ساسته الرنانة عن موارد النفط الهائلة –فلاتوجد أية خدمات مكتبية للأطفال - وكانت هناك مكتبة طفل يتيمة جرى تدميرها خلال احتلال بغداد ولم تفكر جهة ثقافية أو تربوية بتأسيس مكتبات صغيرة لتحفيز الأطفال واليافعين على القراءة واقتناء الكتب.